السنابل

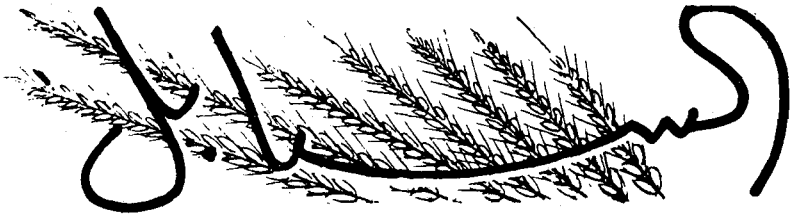

قصة بقلم : جبرا ابراهيم

– إلى أين أنت ذاهب ؟

– لا أعرف بالتحقيق أين أذهب أو ما ذا أفعل .

خلف جاسم قريته (حريثان) وراءه وسار بخطى وئيدة على الدرب العريض .

كان ذلك صباح يوم من أيام أيلول والأرض مقفرة جرداء لا حركة فوقها ولا نشاط في أرجائها . والسماء خالية ، لا غيوم تسبح فيها ولا طيور ترفرف في مداها . والأشجار ساقطت عنها ثمارها القليلة التي حملتها هذا العام . وحين نظر إلى هذا الجو الذي يحيط به ، حول عينيه عنه وخشي أن تزداد كآبته وحزنه ، فهذه الطبيعة تعكس إلى حد بعيد صورة نفسه وآلامه ، منذ ثلاثة أشهر ، ولعله أيقن ، للمرة الأولى في حياته ، أن الخريف فصل قاتم حزين..

وتطلع إلى السماء فرأى الشمس وقد قطعت شوطاً في سيرها ، فردد في نفسه « هذه الشمس .. » ، كيف يعبر عن كرهه للشمس ومقته لحرارتها ، لو انها لم تكن قاسية هذا العام إلى ذلك الحد .. إذن لبقي له شيء من محصول القمح ، شيء ضئيل ، على الأقل ، ولكنه قد يقوم بالأود على كل حال . ولكن الشمس أطالت ، هذا العام ، استكانتها على أرضه ، واصفارت السنابل الصغيرة منذ يقظتها الأولى ، وسرعان ما غدت طعاماً للخراف ..

أما الشتاء فكم كان قصيراً وتافهاً . لم يستمع فيه إلى دوي الرعد ، ولا آنس لمعان البروق ، لم ير المطر يهطل غزيراً مدراراً ، ولم يسمعه يساقط ببطء وأناة خلال ليالي كانون الطويلة ، على الأرض المزروعة ، نقطة في أثر نقطة ، وقطرة في أثر أخرى . لقد سكن آذار فلم يقصف ببرده ولا عصفت عواصفه . أما الثلج فلم يخطر البتة على الأرض ، ولا تذوقت التربة العميقة معنى وجوده وحرارة برودته .

كيف تجبن السماء ، وكيف تبخل الطبيعة هذا البخل ؟ !

– « اللهم اجعل صيفنا صيفاً ، وشتاءنا شتاء .. »

مشى جاسم في الطريق المستقيمة ، والذكريات تمور في نفسه : « كانت أرضي عطشى ، وحبة القمح في باطن الأرض يبست من الظمأ .. وفي القرية المجاورة نفق قطيع الخرفان كله ، كيف تسمح السماء بمثل هذا ؟ »

ان رجليه لتبدوان له ثقيلتين ، في خفه الأحمر . حين يكون للمرء غاية ، فان جاذباً قوياً يشد جسمه نحوها ؛ أما هو فلم يكن يدري إلى أين يتجه ، انه يشعر بثقل هذا الثوب الأصفر الذي يلتف به .

في السنين الخصبة يضج هذا الطريق بأصوات السيارات ، ذاهبة غائدة ، وهي تحمل المحاصيل إلى المدينة . أما اليوم فما أقل السيارات التي تمر ، وما أندر الأبواق التي تزمجر ..

كان من عادة جاسم أن يقصد سوق المدينة ، كل عام ، بعد انتهاء الموسم ، فيشتري حوائجه ، ويحملها معه ذخراً للشتاء ، وكان يرى في أسواق حلب معظم أبناء قريته وسكان القرى المجاورة ؛ وكل منهم يتأبط رزماً من قماش ملون وكعك وحلوى وشاي وسكر ، وأحذية صفراء كبيرة للنسوة وأخرى حمراء صغيرة .. للأطفال .

ما عساه أن يرى في السوق هذا العام ؟ سيجد البائعين في الأسواق الطويلة المسقوفة متربعين أمام واجهات المخازن وقد أكل القحط ربحهم ، والفلاحون يمرون أمامهم ، والشوق يلتهب في عيونهم وينهش أعصابهم .

« حين ينحبس المطر ... »

منذ يومين قصد القرية المجاورة وهو يسوق بقرتيه وحمارة الأبيض ، هل يدفع القحط بالانسان إلى أن يأكل صديقه ومعينه ؟ ولكن يا إلهي كيف يتدنى ثمن البقرة إلى هذا المقدار ؛ ألا يمكن أن تباع البقرة إلا بنصف ثمنها ؟ قال جاسم وهو يحول نظره عن البقرتين والحمار : « فليكن . »

في أحد جيبيه الآن صرة من المال هي ثمن حيواناته ، وها هو يحمل ويدخل المدينة ؟

وعاد إلى سمعه صوت جاره « إلى أين تذهب ؟ »

حقاً إلى أين أذهب ؟ كيف يستطيع قحط الموسم أن يشتت سكان القرية ؟ ما أعرض الآمال التي كانت معلقة على هذا الموسم !

منذ حوالي سبع سنين مرت على القرية سنة جدباء قاحلة ، فباع عمه أدواته وبقرته والمحراث ، ومضى إلى المدينة ، وهناك اشترى عربة صغيرة وميزاناً . كان يبيع النقل في الشتاء ، والفستق في الصيف والزعرور في الخريف .. وهكذا ودع حياة الزرع والحصاد إلى الأبد ..

وتخيل جاسم نفسه بائعاً ينادي على الفستق الأخضر أمام الحديقة الكبيرة ودور السينما ، فشعر بغصة في حلقه .

كم يصعب على الإنسان أن يغير عاداته ، ثم أين هذه الحياة الرتيبة ، حياة البائع الذي يقف منذ الصباح حتى المساء وفي الربيع والخريف إلى جانب ميزانه ، من حياته هو ؟ أن له في كل موسم نكهة جديدة ، ومع كل بيدر آمالا واسعة عريضة . هي الحياة في الأرض متجددة أبداً متغيرة دائماً . حبة صغيرة ثم سنبلة خضراء ثم صفراء ، ثم حبات صغيرة على البيدر من جديد .. أين طعم النقل المالح المر من طعم حبة القمح العذبة ؟ !

أتراه نسي أولاد (العم محمود) ؟

منذ عدة سنوات ترك أولاد العم محمود القرية ، فذهب اثنان منهم واشتغلا بمحلجة القطن ، وفي الصيف الماضي حين مرا على القرية سمع جاسم سعالا عميقاً يخرج من صدرهما . واحسر تاه كيف يفعل القحط في الأجسام . أما بقية الأخوة فقد تفرقوا في المدينة ، واشتغل كثير الأخوة حارساً في المدينة ، نعم حارساً يلبس ثوباً أزرق اللون ذا أزرار صفراء ، ورقم أسود على الياقة ، ومسدس صغير على الجانب الأيسر من سترته . لا ، لا بارك الله في القحط .. واقترب جاسم من أبواب المدينة .

هل يذهب إلى المحلجة فيلتمس فيها عملا له ؛ انه لا شك واجد فيها عملا ، فموسم حصاد القطن سيبتدىء بعد قليل . ثمة صوت الآلات ، وغبار القطن ، ولكن لا ، انه لا يحب حلج القطن ، كيف يستطيع المرء أن يقوم بعمل لا يحبه ؟ أين عملية حصاد القمح ودرسه وغربلته من حلج القطن وندفه ؟ ولكن من يدري : فلعله سيضطر إلى الدخول في هذا المصنع مكرهاً إذا ما سدت في وجهه كل سبل العمل .

وقبل أن يمضي في الطريق القديمة الموصلة إلى أسواق البلدة توقف هنيهة . ما الفائدة من الذهاب إلى ذلك السوق ؟ هل باستطاعته أن يمشي بين المخازن دون أن تحدثه نفسه بشراء الحوائج التي اعتاد شراءها فيما مضى ؟ ما الفائدة من قهر النفس ؟ ما الفائدة من استرجاع صورة القحط إلى النفس ؟ !

شعر بحرارة الشمس وهو واقف يتطلع إلى نوع من العشب لفت انتباهه ، أليس في نية الشمس أن تحتجب هذا العام ، ما استترت طوال الشتاء ، ولهبت الأرض في الصيف ، وها هي تسلق الإنسان في أيلول .

الشمس والقحط ، والمطر والخصب ، صورتان لا تكاد الواحدة منهما تنفصل عن الأخرى في ذات نفسه ، ألا يستطيع الإنسان أن يسير في السوق دون أن يشتري شيئاً ، هل يستطيع أن يمشي كالجنود حازماً جاداً ، بين أصناف البضائع لا يلتفت إلى اليمين ، ولا يلتفت إلى اليسار ؟ هذا المال الذي يتحرك في جيبه ، هل ينفقه في السوق فيعود صفر اليدين كأرض زارها القحط ؟

* * * *

مشى جاسم في السوق المسقوف بين الدكاكين المتراصة يصدمه الذاهبون والعائدون ، وتطرق سمعه عشرات الأصوات والنداءات . ثمة بضائع من جميع الأنواع ، وبائعون مهذارون ثرثارون يقتنصون المارة كما تقتنص الأسماك . كان جاسم يسير دون أن يرفع رأسه ، واجتاز السوق ، ورغبة عنيفة تجول في نفسه : كيف يتغلب الإنسان على القحط ، كيف يستعيض خسائره ، كيف يتغلب على جفاف الطبيعة ورداءة الموسم ؟

حث خطاه ، فاجتاز السوق كله حتى بلغ خاناً في نهاية السوق ذا مدخل واسع عريض ، مبنياً بالحجارة الصفراء الضخمة .. ورأى حارس الخان واقفاً أمام الباب . قال له جاسم :

– هل عندكم قمح ؟

– المخزن الثاني في الجهة اليسرى .

واجتاز جاسم المدخل فانتهى إلى باحة واسعة تحيط بها عشرات الغرف من جهاتها الأربع وتربض الخيول في وسطها ...

وفي المخزن الثاني في الجهة اليسرى اقترب جاسم من شيخ قاعد على بساط من القش ومتكىء على كرسي صغير .

– السلام عليكم .

– وعليكم السلام ورحمة الله .

– هل عندكم قمح شرقي ؟

– نعم يا ابن العم ، تفضل واسترح !

وبعد مشادة طويلة عنيفة حادة حول ثمن القمح . قال جاسم :

– أريد بهذه الليرات (سنابل) من القمح .

وفتح جاسم صرته فأخرج منها ثمن البقرتين والحمار ودفعه كله إلى الرجل.

سيحرث الأرض بنفسه ، وسيزرع القمح بنفسه ، وسيحصده ويذريه بنفسه ، سيقوم هو مقام جميع الحيوانات . لن يعمل في غير أرضه ، وسيتحدى كل شيء ؛ نعم سيتحدى الشمس أن تحرق السنابل الصغيرة ، والمطر أن ينحبس عن أرضه ، والقحط أن يكون ! !

حلب

جورج سالم

صدر عن دار الكتاب اللبناني

تاريخ العلامة ابن خلدون

وقد صدر اخيراً القسم الخامس

من المقدمة وهو مذيل

بفهارس المقدمة

التي وضعها وقدم لها بكلمة عامة الاستاذ يوسف أسعد داغر امين دار الكتب اللبنانيه سابقاً الاختصاصي بفن تنظيم المكاتب وعلم الببليوغرافيا .

وتتضمن هذه الفهارس الى جانب المصادر والمراجع الاجنبية والعربية لدراسة ابن خلدون ١– فهرس الموضوعات ٢ – فهرس اعلام الرجال والنساء ٣– فهرس الشعوب والقبائل والدول والأسر ٤–فهرس البلدان والأمكنة الجغرافية ٥ – فهرس الكواكب والنجوم والابراج الفلكية ٦ – فهرس الحيوان ٧ – فهرس النبات ٨ – فهرس المعادن والجواهر والحجارة الكريمة ٩ – فهرس اسماء الكتب الواردة في المقدمة ١٠ – فهرس آي القرآن الكريم والاحاديث النبوية ١١ – فهرس المواد

وصدر الجزء السادس الذي يبتدىء به التاريخ مع تحقيقات ومقارنات مع مؤرخي العرب كالطبري والمسعودي وابن الأثير وغيرهم ...

منشورات دار الكتاب اللبناني

بيروت ص . ب ٣١٧٦

هاتف ٢٧٩٨٣